# ٣ - بين المعرى ودانتى

## فى رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

### بقلم محمود احمد النشوى

— أثر الروائيين فى اللغتين العربية والايطالية

حدثنا الدكتور جوفانى كابو فيلا عن أثر دانتى فى اللغة الايطالية إبان تقدمته لروايته فقال ( اليه يرجع الفضل فى تثبيت دعائم اللغة الايطالية التى ملأها وهى لا تزال فى مهدها بأقاصيص الحب والعدالة والحرية والجمال )

تلك كلمة نسطرها مقتنعين بها . فاللغة ايطالية وكل لغات أوروبا الحديثة إنما تزداد على مر الايام جمالا وحسنا وثراء من أخيلة ومن ألفاظ . انها تطرد فى الحسن اطراد الاوربيين فى الرقى . وهكذا اللغة تقوى بقوة الامة ، وتضعف بضعفها . وانا لنتقرى مصداق تلك النظرية فى الاوربيين المعاصرين فنرى نسبتهم فى اللغة كنسبتهم فى القوة . وقد كان الايطاليون ضعافا فى عهد دانتى فكانت لغتهم وليدة ، كما قال الدكتور جوفانى .

ونحن ما دهانا فى لغتنا ؟ . لقد كان عهدها الذهبى عصر المعرى إبان القرن الخامس الهجرى . ومن ذلك الحين أخذت تفقد شعاعها على يد التتار فى الشرق ، والاسبانيين فى الغرب ، والمماليك فى مصر ، ولا زالت تضعف تراكيبها ، وتتهلهل نسيجها ، حتى بلغت درجة

---

فظن يسائر الاخوان شراً ولا تأمن على سر فؤادا
فلو خبرتهم الجوزاء خبرى لما طلعت مخافة أن تكادا

هنا أحس زعيم المؤتمرين أن تلك المفاجأة - مهما يكن من شيء - قاسية شديدة ، فأخذ يلطف حرارتها ، ويخفض من شدتها بما قال مخاطبا الناشر : لا يكن فى نفسك يا أستاذ أثر من كذبة ابريل ، فوالله ما تدرى . لعل ذلك فأل جليل ، فتطلع علينا فى غرة مايو الجميل المجلة النزيهة . وفيها لك تاج واكليل

حسن ! وما رأيك فى أن ذلك الشاعر الموتور . هو صاحب تلك السطور ؟

فرحات عبد الخالق

( الصفر ) ضعفا وهزالا اواخر القرن الثالث عشر الهجرى .

بيد أن نهضتنا المباركة أعادت للعروبة طراءة الشباب وجمال الفتوة . وأرتنا كتابا من المعاصرين لا أسميهم ، ولا أبالغ ان قلت انهم فى الطليعة يسايرون الجاحظ ، وابن المقفع وعبد الحميد ، وعمرو بن مسعدة . فى الفكرة وفى الاسلوب

فذلك الضعف المطرد فى الامة العربية منذ القرن الخامس الهجرى . وتوالى الكوارث والمحن عليها أضعف من لغتها . وجعل أثر ( رسالة الغفران ) محدودا . وهل تستطيع رسالة الغفران أن تقاوم الضعف التى تفتحت أبوابه علينا من كل اتجاه ؟ . ان ذلك غير مستطاع . ولو أنها رقت ألفاظها ، وعذبت مفرداتها ، وسلمت من غرابة اتسحت بها ، لرجونا أن تلوكها الألسن فتعذب ، وتجول فى جنباتها الأخيلة فتسمو . ولكنها أبت أن تخرج الناس سافرة غير ذات نقاب . فوضعت من دونها حجبا وأستارا من اغراب ووحشية ومعاظلة لا تزول إلا بعد استشارة القاموس ولسان العرب ومعاجم اللغة . وقد تجد طلابتك وقد لا تجد . نعم قد لا تجد شرح بعض مفردات ( رسالة الغفران ) فى معاجم اللغة كلها . فحالت الغرابة دون تناولها ، وبقيت صدفاتها مغلقة على لآلئها ، فلم ينتفع بها أحد .

نزعة فى أبى العلاء إغرابه والعصر عصر حضارة ، وتوعره والزمان زمان رقة نمت فى نفسه بنمو مزاجه السوداوى ، وتقوت دعائمها بما كان يكاثر به العلماء بعضهم بعضا فى عهده من المباهاة بالغريب . ثم صوغه فى قالب جذاب ترغيبا فى حفظه .

تلك المدرسة التى كان يرفع لواءها الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ والتى وضع أساسها ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ . وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ . والخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ ، والبديع الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ ، وابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ . والتى كانت تكلف بالغريب تلمس أو هى الأسباب لذكره والأكثار منه ، كان لها أثر فى نفس المعرى . فحببت اليه الأغراب والأغماض . وأخرى لعلها حدت به أن يغرب . تلك هى السخرية والدعابة التى يشم منها رائحة التطاول على الدين . فعمد المعرى للغريب يتوارى خلفه . ويتخذه جنا دون من كان يتقى ، فأرانا أفانين من الاغراب تعرب عن علمه باللغة بما تقصر دونه الاعناق ولا تكاد تحيط به العقول .

ولقد كان يأتى ببعض الغريب ثم يفسره بما نستنبط منه أن

شرح المفردات اللغوية كان أحد أغراضه من تدبيج رسالته .

وحسبي أن أضع أمامك بعض نصوصها لتحدثك عن غرابتها ، فأول ما ينطق به في رسالته قوله : قد علم الخبر الذي نسب اليه جبريل (بالحاء) . وبينا ابن القارح يطوف في روضات الجنة اذا به ينظر خمسة نفر فيقول لهم : ما رأيت أحسن من عيونكم ! من أنتم ؟ فيقولون : نحن حوران قيس تميم بن مقبل العجلاني ، وعمرو ابن أحمر الباهلي ، والشماخ بن ضرار أحد بني ثعلبة ، وعبيد بن الحصين النميري ، وحميد بن ثور الهلالي . فيحاور الشماخ في شعره ، فيقول له الشماخ : إنما كنت أسق هذه الامور وأنا آمل أن أقعر بها ناقة . أو أعطى كيل عيالي سنة . وأنا الآن إن احببت وردا من رسل الأواري ، قرب نهر كأنه دجلة أو الفرات . ولقد أراني في دار الشقوة أجهد أخلاف شياه لجبات لا يتسلى منهن القعب .

وكذلك قوله : وما عمل من أجناس المسكرات . مفوقات للشاربين . وموكرات كالجعة والبتع والمزر . والسكركة ذات الوزر . الى غير ذلك مما امتلأت به رسالة أبي العلاء . فكان نصوصا منيعة دون المعنى تحول بينه وبين الأفهام . ودونك مثلا من غريب ما ذكره وفسره حين يقول . فان خرج الى الحاء فقال : من أم شح جاز أن يقول : وحواري بح ، وبيح ، وبرح ، وبجح وبسح . فالمح البيضة ، وبح جمع أبح من قولهم : كبر أبح أي كثير الدسم . ويجوز أن يعني بالمح القداح كما قال السلمي

قروا أضيافهم رجحا بيح يعيش بفضلهن الحي سمر

ورح جمع أرح ، وهو من صفات بقر الوحش . وقد يقال لأظلاف البقرة رح . قال الشاعر الأعشى

ورح بالزماع مردفات بها تنضو الوغى وبها ترود

والسح تمر صغير يابس ، والجح صغار البطيخ قبل أن ينضج . وسواء لدينا أكان إغرابه معاياة لعلماء اللغة أم خدمة في سبيل إحيائها . أم تلك الاسباب كلها مجتمعة ، فقد كان ذلك النسيج دروعا حول المعنى رغبت الناس عنه . فلم تؤثر الرواية في الجماهير . ولعل اكثارها من نقاش النحو واللغة والصرف ، صرف قلوب الناس عنها . على حين كان داتي يتخذ من روايته عظة خلقية خلابة فتهافت الناس عليها منذ ترا ، في سماء ايطاليا .

ولعل مما يكبر المعرى في أعين النقاد أن نقاش رسالته وهو في غريب اللغة ، وعميق النحو والصرف والعروض ، وثلة من تلك الابحاث الجافة لم يكن جافا ، فقد أضفى عليه عذوبة من روحه جعلته عذبا شائقا . وتلك هي القدرة الفذة التي تجعل المعرى في الخالدين

## نفسية الشاعرين :

كان المعرى ههنا مرحا طروبا ، نابدأ بالفردوس ، وختم بالفردوس ، وأطلق لخياله العنان ، في السخر وفي الدعابة ، يسمر مع الشعراء والأدباء والنحاة . بل مع إبليس ، ومع الخزنة ، خزنة النيران : يرى المعذب تندلق أقتابه ، ويسق من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ، فيحاوره في النحو والصرف ، وفي الرواية والتصحيف ، دون أن تجدى لديه ضراعة المعذبين واعتذارهم عن الاجابة بما هم فيه . ولم يصحب المعرى دليلا في رحلته إيناسا لابن القارح ، وتعبيدا لسبيلها

ولكن داتي كان مروع القلب ، هلوع الفؤاد . ابتدأ الرحلة بالجحيم فلم يطق السير في ظلماتها وحيدا . فصحب الشاعر العظيم فرجيل ، يؤنسه ويهديه سواء السبيل . بيد ان اصطحابه لم يمنعه أن يشتد به تأثره ، حين يرى الجسد تتطاير مع اللهب من اللهب ، وحين يستمع العصاة وهم يصطرخون فيها داعين بالويل والثبور الواحد ، وبالويل وبالثبور الكثير .

ولقد أغمى عليه مرات عدة وعيه حينما كان يطوف في الطبقة الثانية من جهنم ، فرأى العاشقين باولو Paolo وفرنشيسكا Francesca وهما يتطايران متعانقين في لهب السعير . رأى داتي تلك المخلوقة الضعيفة تلفح وجهها النيران فأغمى عليه . ولما أفاق قصت عليه قصتها . وأنها كانت هيفاء القوام ، مشرقة الطلعة ، خطبها ( جانشوتو مالاتستا ) القصير القامة الدميم الخلقة . فأطمع أهلها ثراؤه . فتغاضوا عن دمامته ، وإبان الخطبة أروها أخاه ( باولو ) الوسيم القسيم ، فأحبته وظلت ترقب ليلة الزفاف التي تجلت لها سوداء قاتمة حين رأت زوجا دميما خدعت فيه بأخيه الذي ظلت عرى المحبة بينها وبينه متواصلة . حتى أتاحت لهما الفرصة سفرا من زوجها قريبا فالتمساها وتجاسرا بقرآن مغاقصة فيها ثم بلغاها فقداها فتوشجت بينهما أواصر المحبة ، حتى تكشفت أمرهما لأحد الخدم ، فسعى بهما لزوجها . فحضر على حين غفلة فرآهما معا محتلين في منأى عن أعين الرقباء ، فاستبقا الباب فاتبعهما بسيفه فقضى عليهما عقابا في الدنيا ، يتلوه خلودهما في الجحيم